٩

أحكام الطيران!!

في الأسبوع الأخير من شهر فبراير سنة ١٩٦٨ وقع حدث بالغ الأهمية في التاريخ المصرى ومن اللحظة الأولى بدا الحدث عادياً في سياقه الطبيعى.. فهو متصل بقضية ما زالت معنا حتى هذه اللحظة وسوف تؤثر طويلاً في مستقبلنا.. ففي ٢٠ فبراير صدرت الأحكام المعروفة باسم "أحكام الطيران" وهى أحكام[١] على قادة الطيران السابقين الذين قُدِموا إلى المحاكمة بتهمة أنهم لم يعدوا سلاحهم للمعركة بالطريقة الكافية.. وأنه كان هناك إهمال.

(١) ترأس المحكمة الفريق الحديدى وأصدر أحكاماً متفاوتة على من تم اتهامهم فيها.

obeikandl.com

وفي صباح يوم الأربعاء ٢١ فبراير سنة ١٩٦٨ نشرت هذه الأحكام في الصحف.. وعلى الفور توالت ردود الأفعال.. و كان هذا طبيعياً في سياقه.. عندما أُذيعت هذه الأحكام بدأت تظهر ردود فعل غاضبة وثائرة من المصانع الحربية في حلوان وبالتحديد مصنع الطائرات المعروف باسم "رقم ٣٦" والمختص بصناعة هياكل الطائرات.. وبدا أن هذه الأحكام في هذا الموقع الذي عاش أو قارب أو لاصق المشكلة المتعلقة بضربة ٥ يونيو الجوية وظهر أن هذا الموقع هو الأكثر تأثراً وقرباً مما جرى.

وبالتالى بدا في صباح ذلك اليوم وجود تجمعات وفرق متناثرة تتحدث في الأحكام.. ورغم أن الأحكام اتسمت بالشدة حيث حُكم على صدقى محمود قائد الطيران السابق بالسجن ١٥ عاماً.. ولكن بدا لهؤلاء الشباب من العمال رجالاً ونساء في مصنع ٣٦ أن الأحكام لا تتوازى مع الجريمة وأن العقاب أقل بكثير مما حدث.

وبدا أن هناك نوعٌ من الغضب.. ثم بدأت التجمعات المتناثرة تتجمع في شكل مظاهرة.. وحدث أن مدير المصنع كان قلقاً لقرب هؤلاء العمال من ماكينات متقدمة شديدة الحساسية لصنع الطائرات.. فاختصاص المصنع في ذلك الوقت كان هياكل الطائرات.. فاستدعى مدير المصنع الأمن الخاص بالمصنع ودخل رجال الأمن إلى أحد العنابر.. وعندما شاهدهم العمال أخذوا يُدقون على أظهر بعض الماكينات أمامهم احتجاجاً على التدخل الأمنى في قضية يعتقدون أنهم قريبون منها.. وشاهدوا أوجه الإهمال بها.. وهذه حقيقة شهادة لهم.

مظاهرة مصنع ٣٦

تكونت مظاهرة في المصنع ٣٦ وبدأ قسم حلوان يأخذ حالة طوارئ.. وحاول بعض العمال الخروج من المصنع ولكن الشرطة تصدت لهم بقوة وحدث اشتباك محدود بينهم مُستعينين فيه بالحجارة.

عندما علم عمال مصنع آخر وهو المصنع ٣٥ و٣٢ بما حدث بالمصنع ٣٦ خرجت مظاهرة كبيرة اشتملت على جميع هذه المصانع.

وحاول مأمور قسم حلوان في ذلك الوقت منع هذه المظاهرة مما أدى إلى حدوث تراشق بالحجارة خلال عمليات المنع.. ثم صدر أمر يفيد بإطلاق نار في الهواء حتى لا يصاب أحد.. ولكن أصيب بعض المتظاهرين في أقدامهم وبعد ساعة ظهر أن هناك خمسةٌ من رجال الشرطة أصيبوا أيضاً بجراح.

مظاهرات جامعتى القاهرة وعين شمس

فهذه الشعارات بدأت تُسمع في جامعة القاهرة وظهرت تجمعات في شكل مظاهرات ضمت كليات الحقوق والآداب والهندسة.. ثم انتقل صداها إلى جامعة عين شمس.. وإلى هذه اللحظة يبدو الأمر وكأنه في سياقه الطبيعى فهناك حالة غضب تجاه أحكام صدرت ارتآها البعض غير كافية على من صدرت تجاههم الأحكام.

كما بدا لهم أن الأمر أكبر مما يبدو أنه لا يقتصر على سلاح الطيران فقط وهذا في اعتقادى أنه كان رد فعل طبيعى للغاية ومفهوم.. فالناس تقبلت ما جرى وخرجت تطالب عبد الناصر لكى يبقى في منصبه ليس لإعفائه من المسؤلية بل رغبة في تحمله لها.. وهو كان يدرك ذلك وتحمل المسئولية وغير في القيادة.

نقطة انفجار

لكن لم يتصور أحد أن هذه هى نقطة تفجير.. لكنه الوعى العام خاصةً لدى الشباب.. وبدأنا نشاهد كميات من المنشورات.. وتوسع الموضوع ليشمل ظاهرة أخرى موجودة تستحق الوقوف أمامها لأنها كانت تمثل ظاهرة هذا الجيل من الشباب في هذه البلد الذي اعتقد أنه ظُلِمَ تاريخياً رغم أنه من أحسن الأجيال التى ظهرت في التاريخ المصرى الحديث.. ولكن الظروف لم تسمح له إطلاقاً بأن يأخذ فرصة حقيقية لكى يؤدى دوره في السياق العام في البلد.

ولأول وهلة بدأت المظاهرات تكبر وظهر الاتجاه إلى البحث عن الحقيقة ومناقشة المستقبل.. ولم يستطع أحد إدراك الظاهرة في حجمها الطبيعى سوى من لمسوها بالفعل.. وأول من لمس هذه الظاهرة في اعتقادى كان مديرو الجامعات ومنهم آنذاك الأستاذان محمد مرسى الذي كان يرأس جامعة القاهرة.. والدكتور حلمى مراد الذي كان يرأس جامعة عين شمس.

وتفهموا طبيعة هؤلاء هذا الشباب المتظاهر الذي بدا في أول الأمر أنه متضامن مع العمال.. وأنا كنت أردد دائماً أن ذلك الجيل رغم أنه ابن لنظام ٢٣ يوليو ولكنه أثبت تجاوز هذا النظام وتقدم عليه.

ولكن في ظل ذلك ظهر موقف شديد الحيرة حيث كانت هناك أوامر واضحة من قبل عبد الناصر لأنه في هذه اللحظة حدث انقسام واضح في المجموعة المحيطة بالقيادة

ما بين المطالبين بالتشدد الثورى الذي يقضى بأن البلد في حالة حرب وعلى الجيش الذي يحارب في الخنادق أن يلتزم بالحزم مع هؤلاء الشباب.. بالإضافة إلى أن بقاء مظاهرات الشباب في الجامعة حتى لا تخرج خارج نطاق الحرم الجامعى.. فهى دليل تمرد على النظام يضعف صورته أمام العدو والعالم كله.. وعلى الجانب الآخر فسر الآخرون الظاهرة على أنها تحتوى في عمقها أكثر مما يبدو على سطحها.. ودعا إلى توصيف الظاهرة بشكل صحيح محذراً من أن الخطأ في التوصيف سوف يؤدى إلى مشكلات كبرى وكان لديه عدم رغبة في الصدام مع هذه المظاهرات الموجودة في حرم الجامعة.

تصور أنصار المواجهة بالحزم الثورى أن لديهم عذراً ولابد أن يواجهوا المظاهرات وبدى أن هناك عدم فهم فالأمر كان يحتاج إلى استقصاء أوسع لأنه نحن أمام ظاهرة مختلفة.

ولأول وهلة بدأت الأمور تتدرج في محاولة فهم ما يجرى حيث رأى البعض أحقية الشباب فيما يفعلون وأنهم أصحاب قضية وتساءلوا حول طبيعة هذه القضية.. واتضح من خلال المتابعة وجود موقف واحد خطير وأنه من الإمكان أن يسىء كما يتصور البعض ولكنه في رأيى كان ظاهرة صحية وكان علينا أن نتمهل في الحكم عليها.

تصاعد المظاهرات

لكن خلال اليوم الثانى قامت بالفعل مظاهرات بعضها ذهب مجلس الشعب[1] والبعض الآخر ذهب إلى الأهرام.. وذهب آخرون إلى مناطق أخرى.. والمظاهرة الأولى التى أُحيطت بمجلس الشعب الذي كان يرأسه آنذاك أنور (السادات).. طلع (السادات) على التراس الخاص بالمجلس وحاول التحدث مع الشباب وعندما وجد في ذلك استحالة.. استدعى بعضهم للدخول إلى مكتبه ودار حوار بينهم اتسم بالحدة إلى حدٍ ما.. ثم بعد ذلك وجدت أنا شخصياً مظاهرة في طريقها إلى الأهرام تحمل هتافات مختلفة مثل (أين الحقيقة يا هيكل) و(أين حرية الصحافة) و(لماذا لم تقل الحقيقة؟) وغيرها.

وأول اتصال وصل لى أثناء المظاهرات بالأهرام كان من السيد شعراوى جمعة وزير الداخلية الذي أبلغنى أنه وصله الآن بلاغ يفيد حدوث مظاهرات حول الأهرام.. وأوضح لى أنه يريد الاطمئنان لوجود رجال شرطة محيطة بالأهرام.. ولكنى ترجيته أنه إذا ظهرت الشرطة سيستفز المتظاهرين كما حدث قبل ذلك وأبلغته أننى حتى هذه اللحظة لست قلقاً من هذه المظاهرات.

---

(١) كان وقتها يُسمى مجلس الأمة.

بعد ذلك كلمنى الرئيس عبد الناصر وسألنى هل هناك مظاهرة حول الأهرام؟ فقلت له نعم هناك مظاهرة.. ثم قال لى بلغونى أن الأهرام مُحاصر.. وأوضحت إليه أننى إلى الآن أرى شباباً يهتف غاضباً.. ولكن ليس هناك ما يهدد أحد.

اقتحام الأهرام

دخل الشباب الأهرام.. ومنه إلى مكتبى.. ولمح البعض منهم توفيق الحكيم فوقف معه.. وآخرون شاهدوا الدكتور لويس عوض الذي كان مندهشاً مما يجرى.. وكان يرغب في التحدث معهم.. والدكتورة عائشة عبدالرحمن المعروفة ببنت الشاطئ كانت موجودة أيضاً.

دخل حوالى نصف الشباب المتظاهر تقريباً مقر الأهرام وبعد ذلك جاءت مديرة مكتبى وأبلغتنى أن الرئيس عبد الناصر على خط التليفون وهى لا تستطيع أن تحوله إلىَّ لأننى موجود بداخل الاجتماع مع الشباب.. حيث كانت المناقشة محتدمة أكبر مما يمكن تصورها.. وكان أمامى شباب حائر وضائع.. ذهبت خارج قاعة الاجتماع وتلقيت تليفون عبد الناصر الذي أبلغنى أن الأهرام محاصر واقتُحِمَ من قِبل الشباب.. فقلت له أنا لا أعلم إذا كان هذا اقتحام أم لا.. ولكن حوالى نصف المتظاهرين بداخل الأهرام.. وسألنى لماذا ذهبوا إلى الأهرام بالتحديد؟ وأبدى ملاحظة شعرت من خلالها أن هناك من يحاول التحريض أو نقل صورة خاطئة حول ما يحدث.

فكان بالفعل هناك مظاهرة غاضبة ومناقشات دائرة وكان الأمر واضحاً فالشباب صاحب قضية.. وعمل البعض على الإيحاء بأن الشباب بمجيئهم إلى الأهرام مع معرفة عامة بالعلاقة الخاصة التى تربطنى بعبد الناصر قد يكون موجهاً إليه هو.. وكان هو يريد العلم بما يجرى فأبلغته أن الشباب كان يُناقشوننى أثناء اتصالك بى.. وكنت أستشعر بحيرتهم.

جيل يطلب الحقيقة

أثناء جلوسى مع الشباب ساعدونا بحماستهم الطبيعية في كتابة قصة ما جرى خلال هذا اليوم.. وأنا لدى حتى الآن البروفات.. حيث أنهم كتبوا ما حدث بالجامعة مما ساعدنا في أن نعطى لقارئ الأهرام صورة حقيقية في اليوم التالى.. ومحررى الأهرام المختصين بتغطية أخبار الجامعة وما يحدث بها من مظاهرات.. كتب عشرات المتظاهرين كميات مهولة لما جرى بما يملأ حوالى ١٠ صفحات.

وأبلغت قاعة التحرير أن ما كتبه الشباب جزء منه سينشر.. ولكن من الصعب نشر الجزء الآخر لضيق المساحة.. وفوجئت في المساء بمناقشات الشباب معنا والذين بدوا وكأنهم من ضمن أسرة تحرير الأهرام.. ومن خلال تحركى بالمكتب ومشاهدتى للمناقشات تبين لى أنها كانت ظاهرة غريبة تستحق الاهتمام.. ووجدت توفيق الحكيم يرغب في الذهاب لمنزله لأنه لا يستطيع السهر أكثر من ذلك.. والشباب يحيطون به ويصرون على استكمال حديثهم معه.. فاقترحت عليهم الذهاب معه.. وطلبت أتوبيس من أتوبيسات عمال الأهرام.. وركبه توفيق الحكيم ومعه مجموعة من الشباب جلسوا معه إلى أن وصل منزله.

وهنا نحن أمام ظاهرة.. جيل يطلب البحث عن حقيقة ما جرى لبلده.. وكما لديه شكاوى وقضايا حقيقية جرت للبلد.. بمعنى أنه كان هناك تجاوزات سلطة.. وبدأ الشباب يطرح قضايا التراكمات التى نتجت من الآثار السلبية تجاه نظام استمر عشر أو خمسة عشر عاماً منذ أحداث السويس إلى ٦٧.. وكان الشباب لديه ما يسأل فيه عن حق.

بعدها حدث اجتماع للجنة المركزية أُثيرَ به موضوع الشباب.. وجدت في الورق الذي كتبه (جمال عبد الناصر) التناقض بين النظرية والتطبيق.. وهذا يدل أن عبد الناصر كان معترفاً أن ما يتم تطبيقه من سياسات لم يكن يطابق ما تم تنفيذه بالفعل.

عهد جديد

تغيرت الوزارة ودخل فيها ناس كان منهم مديرا جامعتى القاهرة وعين شمس.. ووجدت عبد الناصر يحضر نقاطاً تشتمل على ما يرغب في إبلاغه للوزارة الجديدة في ٤ ورقات.. فقد كان عبد الناصر يشعر أنه لابد من التغيير.. فالشباب يطالب بعهد جديد وتغيير حقيقى.

ووجه عبد الناصر حديثه لمجلس الوزراء الجديد في ٤ نقاط..هي:

- النقطة الأولى تضمنت تساؤلا لعبد الناصر وهو الوزراء الجدد وماذا يمثلون؟ وأجاب عبد الناصر الشباب لم يكونوا بعيداً عن الوزارة وجميعهم لديهم خبرة بالعمل العام ويمثلون جيلاً جديداً يتقدم بالمسئولية.
- أكد عبد الناصر أن التغيير في معناه الحقيقى لا يقتصر على تغيير أشخاص فقط.. لكنه تغيير أوسع.. مع الاستعداد للقتال في الحرب من خلال شباب سيذهب إلى الحرب بالمستقبل لذا لابد أن يفهم الشباب ما يبحث عنه.

وقال: هناك عدة نقاط أرغب في التركيز عليها وهى أنه ليس فيكم من هو مدين بمركزه لأى شيء سوى لعمله وتجربته ورؤيته السياسية.. وكرامة الحكم تضامنية كمسئولية الحكم".. ثم توجه بحديثه إلى حلمى مراد[1] وأبلغه أنه كان يعلم رغبته في تولى وزارة التعليم العالى.. لكنه أسند إليه وزارة التربية والتعليم لأنها لديها القاعدة التى ينبغى البدأ منها حيث أنه يوجد بها شباب المدارس الابتدائية.. والثانوية.. وأنا أريد أن تبدأ التربية من هؤلاء".

وأنا أتصور أن ذلك الورق من أهم الوثائق حول هذا الموضوع.. وجدير بالذكر أن الكثير من الناس لم يعجبهم حديث عبد الناصر واعتبروه تفريطاً في الثورة.. ولكن هؤلاء جميعاً غاب عنهم أننا كنا أمام شيء آخر.

ولدى وثائق فيها جلس قائد البحرية الإسرئيلية مع أحد السفراء يقول له أن المسائل في مصر انتهت وأن النظام سيقع.. والملحق العسكرى الإيطالى وقتها تحدث مع مثيله الأمريكى وأبلغه بأنه لديه معلومات أن النظام المصرى أيام وسيقع.

بالفعل لو أخذ في ذلك الوقت بأن العملية عملية قمع ثورى أعتقد أن هذا البلد كان سيدخل في مشكلات لا حدود لها ولكن لحسن الحظ أن (جمال عبد الناصر) تنبه لذلك.. أظن أن خلال هذه الفترة استمع عبد الناصر كثيراً.

أتذكر أن يوم الجمعة ٣ مارس ١٩٦٨ اتصل بى عبد الناصر وأبلغنى عن رغبته في مقابلتى بالقناطر وذهبنا بالفعل ووقتها لملمت الورق الذي كنت أكتب فيه خلال جلستى معه لأننى لا أحبذ الاعتماد على الذاكرة فقط.. وبذلك الورق أخذت بعض النقط الصغيرة اثناء حديثى معه وعند انتهاء الحديث.. قمت بإعادة بناء لما سمعته من عبد الناصر خلال مقابلتى معه.

---

(١) نائب رئيس حزب العمل ووزير التربية والتعليم الأسبق.. وُلِدَ في ٧ يوليو عام ١٩١٩ القاهرة تخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٣٩حصل على دبلوم الدراسات العليا القانون العام عام ١٩٤٠حصل على دبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد السياسي عام ١٩٤١ أوفد في بعثة حكومية عام ١٩٤٦ إلى فرنسا للحصول على دكتوراه الدولة من جامعة باريس في الاقتصاد واستطاع أن يحصل على دبلومى الدراسات العليا في القانون العام وفي الاقتصاد من الجامعة المذكورة في عام دراسى واحد.. حصل على درجة دكتوراه الدولة من جامعة باريس عن رسالته " صندوق النقد الدولى "عام ١٩٤٩ له العديد من المؤلفات وحصل على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٧٣.

اتضح لى أنه نظر وتأنى وفكر واستوعب ثم اتخذ موقفه وكان ذلك في منتهى الصعوبة لأن عبد الناصر كان رجلا أسطوريا في وقته كما اتسم بأنه لا يقاوم في العالم العربى وأخذ صدمة أكثر بكثير مما ينتظر وشعر بتناقض داخلى شديد للغاية.

عام المتاريس ثورة شباب عالمية

فات على الكثير منا في الداخل والمراقبون لمصر في الخارج أن يعلموا بأن حركة الشباب عام ٦٨ كانت ثورة شباب عالمية.. وفي بعض الأحيان أتساءل لماذا لا نفكر منذ اللحظة الأولى أن الذي رأيناه في مصر كان جزءاً من حركة شباب عالمى خلال عام ١٩٦٨ حيث أطلق الفيلسوف ماركيز[1] على هذا العام بعام المتاريس.. وهو هنا كان يسترجع سنة ثورية أخرى كانت خلال عام ١٩٤٨.

وفي عام ٦٨ الإمبراطوريات المنتصرة في الحرب العالمية الثانية والتى تصورت بأنها حققت القوة الكبرى.. حدث بأمريكا ثورة شباب وأقيمت المتاريس بجميع المناطق في أوروبا وخرج الشباب هائجاً يبحث عن الحقيقة والمستقبل والأمل.. لأن الشباب في ذلك الوقت كان يرغب في أن يشعر بأن هناك شيئاً تغير بعد الانتصار في الحرب العالمية الثانية.

أتذكر أنه بعام ١٩٦٨ وصل الاهتزاز إلى كل شيء.. كان هناك اهتزاز لجميع العقائد.. فلا الرأسمالية تصلح.. ولا الشيوعية.. وظهر العالم وكأنه داخل على نفس التغيير الحادث بعد الحرب العالمية الثانية.. وأن هناك شيءٌ يجرى في العالم كله له أصول تاريخية.. فكان من البديهى أن يحدث عندنا شيء من قبيل ذلك.

في تاريخنا نحن لم يظهر أن لعب الشباب دوراً بارزاً في العمل العام فثورة عرابى قادها الضباط أبناء الفلاحين الذين امتلكوا أرضاً ولديهم ضيق من الشراكسة.. وثورة ١٩١٩ قادها بالدرجة الاولى موظفون وأزهريون بينما لم يدخل الشباب الجديد في الصورة.

---

(١) جابرييل خوسيه جارسيا ماركيز روائي وصحفي وناشر وناشط سياسي كولمبي. ولد (في ٦ مارس ١٩٢٧) في مدينة أراكاتاكا في مديرية ماجدالينا وعاش معظم حياته في المكسيك وأوروبا ويقضي حالياً معظم وقته في مدينة مكسيكو سيتى.. نال جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٢ م وذلك تقديرا للقصص القصيرة والرويات التي كتبها. اشتهر بآراءه السياسية الحادة.. وتعاطفه مع القضية العربية ضد الكيان الصهيونى.

هذا الجيل الجديد من الشباب الذي أطلق عليه فيما بعد بجيل السبعينيات شاهدته بالجامعة والمظاهرات وخنادق ميادين القتال.. ولكن للأسف هذا الجيل طلع وأبدى رأى وتظاهر ورفض وتمرد وفرض تغييراً لأنه بعد ذلك صدر بيان ٣٠ مارس الذي شمل على تصور لمستقبل ليس به (جمال عبد الناصر) لأن عبد الناصر كان يردد أكثر من مرة أن ميدان القتال سوف يعلم الجيل الجديد أشياء عديدة أهم ألف مرة من كل ما يُدرس في الكتب والمحاضرات والندوات وأن هذا الجيل سيرجع وقد اكتسب قدرة تجعله يطالب بحقه.

محاولة انقلاب داخل الأهرام

وجدت في ذلك الوقت محاولة انقلاب من داخل الأهرام لم أتنبه إليها رغم أننى أُخطِرتُ بها.. حدث ذلك من خلال تفكير التنظيم السياسى في عمل انقلاب داخلى في الأهرام.. وأبلغنى (السادات) بذلك.. وطلب من سامى شرف أن يبعث إلىَّ نسخة من التحقيق الذي جرى حول ذلك الموضوع.

وحقيقة ما حدث أنه كان هناك شاب من الأهرام ـ لا أريد ذكر اسمه ـ تم تجنيده أو شيء من قبيل ذلك وأبلغهم أنه يعمل منذ ٣ سنوات بالأهرام ومع ذلك لم يقابلنى أبداً واتهمنى بأننى مستبد في إدارة شئون الأهرام.. وطلب أن يصدر قرار في شأنى بسبب طول فترة رئاستى للأهرام.. وقال لى (السادات) «شوف كانوا عايزين يعملوا فيك إيه" ووجدت في الورق أنهم وصفوا مقالاتى بالتخاذل واستنتجوا أننى أطالب بمفاوضات مع إسرائيل وليس مع الأمريكان.

وخلال التحقيق أوضح الشاب أنه شرع في وضع شعارات للانقلاب بمنشورات سيقوم بتوزيعها.. ولكنه أبلغ المحققون أنه لا يستطيع عمل انقلاب داخل الأهرام بمفرده.. لذا فهو يحتاج إلى مساعدة من خارج الأهرام من خلال السلطة السياسية وأنا حتى خرجت من الأهرام لم أشاهده ولم اتخذ أى إجراء تجاهه وبقى في الأهرام.

❖❖❖